الفصل السادس

إتجاه التفاعل الرمزي

1 ـ الجذور التاريخية للفكر التفاعلي الرمزي: المفهوم والتطور.

2 ـ جورج هيربرت ميد: الذات والمجتمع

3 ـ جارلس كولي: المرآة العاكسة للذات.

4 ـ إيرفنك جوفمان: مسرح الحياة الاجتماعية.

5 ـ خلاصة ونتائج.

1 ـ الجذور التاريخية
للفكر التفاعلي الرمزي المفهوم والتطور

تمتد جذور نظرية التفاعل الرمزي في الدراسات الكلاسيكية لعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة. وكذلك إلى المذهب البرجماتي (مذهب الذرائع) التي يتصف بقبول الخبرة الإنسانية العادية كمنع نهائي وامتحان أخير لكل معرفة وقيمة. وقد جاء بها كل من وليام جيمس وجون ديوي، وأبرز روادها جورج هربرت ميد وتابعها تشارلس هورتون كولي في كتاباته الاجتماعية. ويرجع هذا «المذهب إلى أكثر من قرن من الزمن، وهو ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها. أما فلسفته فتنطوي على تسجيل وتلخيص الخبرات السابقة لأنها أساسية لتنظيم المستقبل في ما يخص الملاحظة والتجريب»[1].

ويمكن القول بأن الاهتمام الاجتماعي «بالتفاعل بدأ في ثلاث نظريات تقليدية: نظرية الدور التي جاء بها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية من أمثال رالف لنتون، وتطورت في كتابات كل من تالكوت بارسونز وكنجزلي ديفيز وروبرت ميرتون وغيرهم. وكانت نظرتهم أن التفاعل الاجتماعي مسرحيّة يلعب فيها الممثلون أدواراً كتبت من ثقافة تشكلت من العمليات التطورية التي تتكيف مع حوادث البيئة»[2].

وتقدم فكرة نظرية التفاعل الرمزي على وجود عملية التفاعل والاتصال

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، مصدر سابق، ص 173.

(2) د. فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، الطبعة الأولى (عمان: دار الشروق، 1992) ص 154 ـ 155.

بين الناس عن طريق اللغة، حيث تستخدم الرموز والعقل والذات والأنا كأدوات علميّة لمعرفة وتحليل السلوك الإنساني والظاهرة الاجتماعيّة. فالرموز، بنظر هذه النظرية، هي:

1 ـ أداة أساسية للتفاهم والاتصال بين الناس ونقل الرسائل الشفوية والمكتوبة وغير اللفظية.

2 ـ الرمزية هي «شيء ما يحل مكان شيء آخر». فوجود التمثال مثلاً، في مكان ما يدل على وجود هذه الشخصية أو الفكرة مع أنه غير موجود. حيث يتم التفاعل الاجتماعي الرمزي بواسطة وظيفتين هما: وظيفة الاتصال بين الناس، ووظيفة المشاركة التي تتم عن طريق الاتصال[1].

3 ـ الرمز عبارة عن إشارة مميزة لدلالة على موضع معين مادي أو معنوي. ويكون لكل رمز معنى يحدّد من قبل المجتمع. ويشير إلى وظيفة اجتماعية تشبع حاجة الفرد وتساعده على التفاعل مع بقية أفراد المجتمع. فمعاني الرموز ما هي إلاّ نتائج اجتماعيّة مخلوقة من المجتمع لتحديد أنماط سلوك أفراده، وتوضيح عملية تفاعلهم، وهي مكتسبة.

4 ـ الرموز تتضمن معاني متفقاً عليها من قبل أفراد المجتمع تعمل على تماثلهم في نمط سلوكي معين يستخدمونها عندما يريدون التعبير عن مضامينها[2].

موضوعات اتجاه التفاعل الرمزي

يمكن تحديد أبرز موضوعات اتجاهات التفاعل الرمزي بالنقاط الآتية:

---

(1) روشيه غي، مدخل إلى علم الاجتماع (الفعل الرمزي)، تعريب د. مصطفى دندشلي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983) ص 107.

(2) د. معن خليل عمر، مصدر سابق، ص 174 ـ 175.

1 ـ الذات (النفس البشرية): وهي العامل الأساسي في عملية التفاعل الاجتماعي، حيث تحتوي على العديد من المعاني والتفسيرات. وتنشأ داخل المجتمع، وتكتسب من عدّة مصادر أهمها الخبرات الاجتماعية عند الفرد، وتفاعل الفرد مع الآخرين. فالنفس البشرية تتكون من قسمين هما الذات الفردية التي تمثل استجابة التركيب العضوي لاتجاهات الآخرين. والقسم الثاني يمثل الأنا الاجتماعية المتكونة من اتجاهات الآخرين. وبهذا المعنى فإن النفس البشرية عبارة عن مرآة ينعكس عليها ما يوجد في المجتمع والثقافة التي تعيش فيها الفرد.

2 ـ الرموز، كحقيقة اجتماعية لها دورها في عملية تفاعل الأفراد والاتصال في ما بينهم، وكذلك في عملية التكيّف. وهذا يعني بأن المجتمع هو الذي يصوغ هذه الرموز ليجعلها ذات معانٍ اجتماعية وسلوكيّة. ويرى ميد في الرمز «الواسطة التي يستطيع أفراد عديدون أن يتفاهموا ويتواصلوا بها»[1].

3 ـ الظواهر الاجتماعية، ينبغي أن ترتبط بوعي الباحث الذي يقوم بدراستها. فالظواهر لها وجود في وعي الأفراد أو إدراكهم، وعلى الباحث أن «يشتق لنفسه من الأدوات ما يمكنه من الغوص في نفوس الأفراد لاستخلاص ظواهر المجتمع وقوانينه كما يتصورها. ومن هنا كان التركيز على هذه الأساليب الجديدة في جمع البيانات عن الظواهر الاجتماعيّة»[2].

---

(1) د. أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، الطبعة الأولى (القاهرة: دار المعارف 1981) ص 456.

(2) د. بودون وف. بودّيكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د. سليم حداد (بيروت: المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع 1986) ص 345.

3 ـ جورج هيربرت ميد
الذات والمجتمع

ولد ميد (1863 ـ 1931) في ماسا شوست. وتعلم في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية وليبزج وجامعة برلين في ألمانيا. درس الفلسفة المثالية الألمانية والبرجماتية الأمريكية[1]. أمضى جورج ميد جانباً كبيراً من حياته الأكاديمية يتعلم في جامعة شيكاغو التي تعتبر من المدارس المتطورة الكبرى في علم الاجتماع الأمريكي. كما كان مقلاً في ما نشره من أعمال خلال حياته. ومع ذلك فاض تأثيره على معاصريه من خلال مجموعة من المحاضرات والمقالات المتفرقة. وبعد وفاته جمعت هذه المحاضرات والمقالات ونشرت على هيئة كتب كان من أهمها «العقل والذات والمجتمع» عام 1934 و«حركات الفكر في القرن التاسع عشر» عام 1936 و«فلسفة الفعل» عام 1939.

وترجع أهمية ميد إلى أنه استطاع أن يتحرّر من الأفكار السلبية والميكانيكية عن الذات والشعور، تلك الأفكار التي هيمنت على علم النفس وعلم الاجتماع الأمريكي في البدايات الأولى من القرن العشرين. وقد تأثر ميد فكرياً بالعديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية كالفلسفة البرجماتية عند جون ديوي ووليام جيمس، والتطورية الداروينية والمثالية الألمانية ورومانسية القرن

(1) جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعية ـ تطورها ونماذجها الكبرى، ترجمة د. محمد سعيد فرح (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1995) ص 169.

التاسع عشر[1].

المضامين العامة لنظرية ميد الاجتماعية

لم تكن النظرية الاجتماعية عند «ميد» منفصلة عن الواقع والبيئة التي عاش فيها، وإنما كانت تعبيراً واضحاً لعملية التأثير الفكري لعدد من العلماء الذي تناولوا موضوع الذات في أدبياتهم. فقد سبق للمثالية الألمانية عند هيجل وللاتجاه الرومانطيقي أن أكدا معاً على أهمية الذات في بناء الثقافة وتطورها. وكذلك العالم جورج زيمل الذي ناقش الذات الاجتماعية الإيجابية والفعالة من خلال فكرة التفاعل والروابط الاجتماعيّة. كما كان وحده له التأثير الواضح على نظرية الذات التي تطورت في علم النفس الاجتماعي. كما تأثر «ميد» بالعالمين جيبرل تارد وكولي وبطروحاتهما العلميّة حول الذات.

إن هذا التأثر لايفي بأن «ميد»حاول استنساخ أفكار الآخرين، بقدر ما كان مجتهداً في نظريته، وناقداً للكثير من أفكار علماء عصره، وبالذات شارلز كولي ومنهجه النفسي في تحليل الذات.

وقد حاول «ميد» أن يبحث في نشأة الذات في قوى خبراتها وتجاربها الاجتماعية العمليّة (مظاهرها الخارجية)، وأيضاً في ضوء خبراتها كوعي أو شعور (مظاهرها الداخلية). لهذا أسس «ميد» نظريته في التفاعل الرمزي على عنصرين أساسيين هما: النفس البشرية (الذات) والمجتمع أو السلوك الاجتماعي.

---

(1) آلان سونيجوود، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، ترجمة د. السيد عبد العاطي السيد (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعيّة 1996). ص 331 ـ 332.

1 ـ النفس البشرية (الذات)

ذهب ميد إلى أنه على الرغم من أن الذات تنطوي على جانب بيولوجي لأنها تعتمد في تطورها على الجهاز العصبي المركزي. فإنه من خلال توافقه مع بيئته وسعيه الدائب للسيطرة عليها، يستطيع الكائن العضوي الإنساني أن يوحد نفسه كذات. كما أن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يكون بدون ذوات، طالما أن أغلب خصائصه المميزة تفترض امتلاك أعضائه للذوات. ومن خلال الذات يكون لها القدرة على التأمل والاستدلال والتبصر[1]. وتطوير أنماط جديدة للتنشئة الاجتماعية.

إن ميد يرى بأن النفس البشرية لا تنشأ من خلال الخبرة الفردية الخالصة بل من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين وإدراكه لحكمهم وملاحظاتهم حول سلوكه وتفكيره. وتتأثر النفس البشرية بالعوامل الآتية[2]:

1 ـ الأخذ بنظر الاعتبار آراء وأحكام وملاحظات الآخرين المحيطين به دون الأخذ بنظر الاعتبار خبراتهم الشخصية.

2 ـ الأخذ بنظر الاعتبار آراء وأحكام وملاحظات الآخرين المشترك معهم في عملية التفاعل الاجتماعي تجاه سلوكه وتفكيره وتصوراته.

3 ـ الرجوع إلى خبراته الشخصية التي جمعها خلال مسيرة حياته الاجتماعية عند الحاجة.

---

(1) Mead, G. H.: Mind, Self and Society, University of Chicago press, Chicago 1934, p. 222.

(2) Ibid. pp. 270 - 279.

4 ـ ونتيجة تفاعل العوامل الثلاثة السالفة تتكون النفس البشرية التي تعكس نمطاً منظماً عاماً لسلوك الجماعة التي ينتمي إلى الفرد.

مراحل تكوُّن الذات

تتكون الذات من عمليات مترابطة ومتصلة، حيث تتطور الذات تدريجياً خلال عدّة مراحل، حيث تبدأ بالتنشئة الاجتماعية الأولية وتنتهي بالتنشئة الاجتماعية الثانوية. ففي المرحلة الأولى يستجيب الفرد للغير الملحوظ (أي الذات الشخصية والخاصة) وفي المرحلة الثانية يستجيب الفرد للتغير العام أي الذات الجمعيّة. ويتعين أن يمر الشخص بعدد من التجارب الحاسمة لتحقيق هذا التطور، أهمها أداء الأدوار الملائمة وثيقة الصلة بعملية التنشئة الأولية، والعاب الجماعة، والتي هي ضرورة لقبول محاكاة وتقييم أداء الآخرين. ونتيجة لهذه العمليات تتشكل الذات الاجتماعية، التي تتكون من عنصرين: (الأنا) وتمثل استجابة الفرد لاتجاهات الآخرين، والعنصر الثاني وهي الذات الاجتماعية (الآخرين) أو المجتمع، حيث أن اتجاهات الآخرين الاجتماعية تكوّن وتركب الأنا، وتقوم (الأنا) بواجبها عندما تستجيب لاتجاهات الآخرين وتقوم بتأثيرها على الذات الفردية.

2 ـ المجتمع والسلوك الاجتماعي

يرى ميد بأن المجتمع ما هو إلاّ حصيلة العلاقة المتفاعلة بين العقل البشري والنفس البشرية، وهي علاقة متلازمة ومتفاعلة. أما سلوك الفرد، كما يراه ميد، فهو عبارة عن انعكاسات لهذا التفاعل المستمر (عقل + نفس + مجتمع). فالعقل عنده عبارة عن القدرة البشرية على استخدام الرموز والإشارات التي لها معانٍ ذات مضامين حضارية واجتماعيّة تحدّد وتقنّن سلوك الفرد في المجتمع، ومهمة هذه الرموز والإشارات هي تسهيل عملية الاتصال بين الأفراد وتكيفهم بعضهم للبعض، وهي تعني بداية السلوك الاجتماعي التي تعمل على تحفيز الأفراد لفعل ما.

ويعتقد ميد بأن الذات والعقل هي مخلوقات اجتماعية للحياة اليوميّة. وأن سلوك الفرد عبارة عن انعكاسات للتفاعل الاجتماعي المستمر. وأهم أدوات التفاعل والاتصال مع الآخرين تتمثل بعناصر جوهرية هي اللغة والذات والعقل والرموز والإشارات والمجتمع أو الجماعة.

وخلاصة القول بأن الاتجاه العام لنظرية التفاعل الرمزي تعتمد على العلاقة المستمرة بين الأفراد والمجتمع من خلال عملية التفاعل الرمزي المرتبطة بالعقل البشري والنفس الاجتماعية والمجتمع، أي أن الفرد في هذه النظرية يعتبر وحدة أساسيّة يرتكز عليها المجتمع.

خلاصة فكر ميد الاجتماعية

1 ـ نظريته تعتمد على كون الذات أو النفس البشرية هي المرآة التي ينعكس عليها المجتمع بكل صوره وتناقضاته وتفاعلاته.

2 ـ الذات لا توجد إلاّ في علاقة مع جماعات اجتماعية، لأن الفرد نفسه ينتمي إلى بناء اجتماعي وإلى نظام اجتماعي عام. ولذلك كان العقل والذات، وكان الوعي والفعل ظواهر جمعيّة وليست فردية تشتمل على أدوات وعلاقات ونظم اجتماعيّة.

3 ـ المجتمع عند ميد هو وحدة ديناميكية متطورة، تولد بشكل مستمر أنماطاً جديدة ومتميّزة لأساليب التنشئة الاجتماعية للأفراد. فالفرد كائن عقلاني ومحصلة للعلاقات الاجتماعيّة.

4 ـ الرموز هي عوامل جوهرية لتسهيل الاتصال. وهي تعكس الحاجات الاجتماعية والرغبات الفردية للإنسان من خلال وظيفتها الاجتماعيّة بقصد تحقيق التفاعل.

3 ـ شارلز هرتن كولي: المرآة العاكسة للذات

ولد كولي (1864 ـ 1929) في مدينة آن أربور بولاية ميشيجن في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قضى طيلة حياته في هذه المدينة. إلاّ إذا استثنينا بضع سنوات قليلة قضاها خارجها، وكان ذلك خلال دراسته في ميشجن ثم اشتغاله بالتدريس هناك. وقد كان لتدريسه وكتاباته تأثير ملحوظ على العلوم الاجتماعية في أمريكا، وبخاصة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والاقتصاد. وكان كولي ينفر من كل ما يزعج حياة التأمل والتفكير الهادىء التي كان يفضلها ويعشقها، لذلك نجده يرفض وظيفة أستاذ بجامعة كولومبيا، ويقبل بعد تردّد شديد رئاسة الجمعيّة الأمريكية لعلم الاجتماع في عام 1918. أما أعمال كولي البارزة فهي: الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي (1918)، والتنظيم الاجتماعي (1909)، والعملية الاجتماعية (1918)[1].

الذات في نظرية كولي

أشارت الكثير من النظريات الاجتماعيّة والنفسيّة التي دارت حول مفهوم الذات على أهميتها كجزء من الشخصية، وهي الشعور والوعي بكينونة الفرد حيث تنمو الذات وتنفصل تدريجياً عن المجال الإدراكي، وتتكون بنية الذات كنتيجة لتفاعل مع البيئة. ويتفق الكثير من أصحاب نظرية الذات على أن مفهوم الذات يتكون من أفكار الفرد الذاتية لتشمل هذه العناصر: المدركات

(1) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع ـ طبيعتها وتطورها، ترجمة د. محمود عودة وآخرين، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1995). ص 213 ـ 214.

والتصورات التي تحدد خصائص الذات، كما تنعكس إجرائياً في وصف الفرد لذاته كما يتصورها هو، والمدركات والتصورات هي التي تحدّد الصورة المثالية للشخص الذي يكوّن «الذات المثالية»[1].

كان كولي من أوائل من اهتموا بتشكل الذات ونموها، وتوصل إلى أن الذات ونموها إنما تتكون حصيلة عملية التفاعل مع الآخرين، وخاصة أعضاء الجماعات الأولية. ففي السنوات الأولى يرى الطفل نفسه من خلال رؤية الآخرين له، ويقوم بملاحظة وتأويل استجابات الآخرين، فيتكون لديه تصور للذات، وينطلق في هذا من أهمية الآخر للفعل. وقد أطلق على هذه العملية في تصور الذات (المرآة العاكسة للذات) وكأن الآخرين مرآة تمكنه من رؤية ذاته.

ويركز كولي على الذاتية الأساسيّة للفرد والمجتمع، كما أنه أيضاً يركز على الاتصال كآلية تربط الأفراد داخل المجتمع. فالذات عنده تعتبر أساسيّة في السلوك الإنساني، واعتبار الجماعات الأوليّة كبوتقة تنصهر فيها خبرات الفرد وتصوراته[2].

وتشمل عملية «المرآة العاكسة للذات» على عناصر جوهرية وهي:

1 ـ كيف تظهر ذواتنا وأفعالنا للآخرين عبر استجاباتهم.

2 ـ تأويلنا لاستجابة الآخرين.

3 ـ نمو شعور ذاتي نتيجة ذلك كالثقة بالنفس. وبهذا لا تولد الذات مع ولادة الإنسان، ولا تنمو بمجرد نموه العضوي والحيوي، وإنما الذات هي تعبير

---

(1) د. شفيق رضوان، علم النفس الاجتماعي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1996) ص 212.

(2) د. إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، الطبعة الأولى (الأردن: دار الشروق 1999). ص 193 ـ 194.

عن نتاج اجتماعي تتشكل وتنمو من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين.

ويضيف كولي إلى هذا التداخل بين النفس والأفكار والتفاعل، حيث يعتقد بأن شعور الفرد حول نفسه ما هو إلاّ انعكاس الأفكار حول نفسه المتأتي من عقول أو أفكار الآخرين، لذلك لا توجد نفس إنسانية معزولة.

باختصار فإن «إدراك أفكار الآخرين ما هو إلاّ استجابة الفرد للموقف وقيم وحكم الآخرين. وهذا الإدراك لا يظهر إلاّ عند الإنسان الناضج ـ في نظر كولي ـ الذي ينمو ويترعرع داخل العلاقات الحميمة للجماعات الأولية التي تشكل الخلية الأساسية للطبيعة البشرية».

ويعطي كولي أهمية للجماعات الأولية أي تشكيل الذات، لأن من خصائصها الأساسية أنها تقوم على علاقات المواجهة المباشرة الوثيقة، والتعاون الواضح، والصراع، وحرية التعبير عن الشخصية والعواطف. كما يؤكد بأن الجماعات الأولية وبالذات «الأسرة وجماعات اللعب والجوار» هي مظاهرة عامة في كافة التنظيمات الاجتماعيّة، ولها القدرة على تشكيل الطبيعة الإنسانية، وتأثيرها على خبرات الفرد المبكرة، وهي كذلك تنمي لدى الفرد الشعور بالوحدة الاجتماعية[1].

والخلاصة بأن نظرية الذات تقوم على عدّة فرضيات[2]:

1 ـ يؤثر المجتمع أي تكوين ذات الفرد ومعتقداته وقيامه بممارسة أدواره الحياتية المختلفة.

2 ـ يدخل الإنسان في تفاعل مع الآخرين وفقاً لمنظومة من التوقعات التي يفضلون أن يروها منعكسة في معتقدات وسلوك بعضهم البعض.

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص 202.
(2) نيقولا تيماشيف، مصدر سابق، ص 219.

3 ـ السلوك الاجتماعي سلوك مكتسب يتعلمه الفرد من المجتمع عبر وسائل التعليم والتنشئة الاجتماعية المختلفة.

المجتمع والعلاقات الاجتماعية

يذهب كولي إلى أن المجتمع شيء أكبر من المجموع الكلي للأفراد لأن وحدة المجتمع ترتبط بوحدة الفعل الاجتماعي، الذي لا يتكون نتيجة لاتفاق الأفراد فحسب، بل يتحدّد عن طريق التنظيم الذي هو مظهر أو جانب محدّد من العقل، حيث لا يمثل تعدّد هذه النظم وحدات منفصلة، بل هي بمثابة اتجاهات منظمة للفعل العام. ويعترف كولي بأن منهجه في دراسة المجتمع ليس عضوياً فقط بل هو منهج سايكولوجي كذلك[1].

كما يعطي كولي أهمية كبرى للعامل الروحي في العلاقات الاجتماعية، وهو يعتقد بأن الوجود البيولوجي أو البيئوي لا يفي مطلقاً وجود علاقات أو قيام مجتمع إذا لم تكن هناك صلات نفسيّة تعتمد على قيم روحيّة خلقيّة تؤهل الأفراد للقيام بعمل موحد. ويقسم كولي العلاقات الاجتماعية إلى قسمين:

1 ـ العلاقات الأولية المباشرة. وتتحقق في الأسرة والجوار وجماعات الأصدقاء، وتعتبر البؤرة الأولى لتكوين الطبقة الاجتماعيّة. ويحدث نتيجة لهذه العلاقات المباشرة اندماج كلي بين الأعضاء واتحاد بين مشاعر الأفراد؛ فيجد الفرد نفسه جزءاً لا يتجزأ من المجموع.

2 ـ العلاقات غير المباشرة (الثانوية)، التي تتم بين الأفراد الذين تنتظمهم مؤسسة أو هيئة أو طبقة أو مجتمع. ومثل هذه التجمعات يطلق عليها

---

(1) عبد السلام بشير الدويبي، علم النفس الاجتماعي (طرابلس: الجامعة المفتوحة، ب. ت ص 98.

كولي مجتمعات ثانوية من حيث أن التأثير بين أفرادها ليس تأثيراً تلقائياً أو مباشراً وإنما هو تأثير أنشىء عن طريق غير مباشر بحكم القواعد الموضوعيّة والنظم القائمة في الجماعات التي يلحق بها الأفراد كأعضاء[1].

والخلاصة، فإن كولي، ينظر إلى المجتمع الإنساني على أنه عبارة عن نسيج من تفاعلات وتصورات وانطباعات عقل الفرد مع عقول الآخرين.

خلاصة فكر كولي

1 ـ تؤكد نظرية النفس المرآة أو الذات المنعكسة على البعد الاجتماعي لنمو الذات (الشخصية). وتشير إلى أن الإنسان ابن مجتمعه يتأثر بكل ما يجري فيه ويعكس في سلوكه توقعات المجتمع منه كعضو له أدواره المختلفة في هذا المجتمع.

2 ـ العامل النفسي هو الجوهر الأساسي في عملية العلاقات الاجتماعية أو قيام المجتمع.

3 ـ الجماعات الأولية هي التي تقوم أيضاً بتشكيل الذات، وتكوين خبرات الفرد المبكرة، وتدعم المثاليات الاجتماعية العامة. كما أنها تعتبر ظاهرة عامة في كافة التنظيمات الاجتماعيّة.

---

(1) نيقولا تيماشيف، مصدر سابق، ص 217.

4 ـ إيرفنك جوفمان

مسرح الحياة اليوميّة

ولد في مدينة مانفيل ألبرتا بكندا عام 1922. وحصل على البكلوريوس من جامعة تورنتو عام 1945، وعلى الماجستير من جامعة شيكاغو سنة 1949، والدكتوراه من نفس الجامعة عام 1953. وكان عضواً في مركز البحوث بجامعة أدنبرة في سكوتلندا من سنة 1949 ـ حتى عام 1951. ثم التحق بقسم علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا عام 1958 ثم أستاذاً للأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع في جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا[1].

وأهم أعماله «حضور الذات في الحياة اليوميّة» عام 1959، «المقابلات والوقائع» عام 1961، «المقدسات» عام 1961[2].

الاتجاهات العامة لنظرية جوفمان الاجتماعيّة

إهتمت نظريته الاجتماعية بالفرد وموقفه من الآخرين، وكيفيّة تقديم نفسه وأفعاله لهم من خلال الحياة اليوميّة، والطريقة التي يمكن من خلالها التحكم بانطباعات الآخرين عنه أثناء التفاعل الاجتماعي. وهذه المبادىء هي نوع من التأليف المسرحي، حيث «الأداء» لمواجهة الآخرين والتأثير عليهم،

---

(1) د. أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي (بيروت: دار النهضة العربيّة، 1981) ص 491 ـ 492.

(2) د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص 192.

ومعرفة ردود فعلهم بقصد تمكينه من إغفال أو اجتناب بعض الأشياء والأفعال. وبمعنى آخر فإن الفاعل يريد تقديم نفسه للآخرين بشكل أفضل من خلال دوره في الحياة اليوميّة، ليحقق أفضل صورة من التفسيرات التي تفسر سلوكه لدى الغير. مما يجعل هذه النظرية الاجتماعية تتجه إلى تعميق الجوانب الفردية للتفاعل الاجتماعي.

وبعبارة أخرى فإن جوفمان لم يستخدم النفس البشرية والأنا أو الذات كما فعل ميد، بل اهتم بالتركيز على فكرة أساسيّة وهي كيف يؤثر الآخرون على تصرفات الفرد، وكيف يتحرك الفرد لكي يتخيل ويتصور آراء وأحكام وتقييم وطلبات الآخرين لكي يستجيب لها سلباً أو إيجاباً، ثم يقوم بعد ذلك بالبحث عن معلومات حول رموز الآخرين لكي يحدّد موقفه منهم ويعطي انطباعاً منسجماً مع استجابتهم التي يتبعها. ويقوم الآخرون بالوقت نفسه بجمع المعلومات حول مكانة الفرد الاجتماعيّة والاقتصادية واعتباره الاجتماعي وثقته بنفسه وبالآخرين وغيرها من الصفات الفردية[1].

وقد حاول جوفمان من خلال دراسات لبعض المؤسسات الاجتماعية كالمصحات العقلية والسجون أن يبرهن على صحة أفكار نظريته في التفاعل الرمزي. وأن يجد المبرّر لتسويتها فكرياً ضمن مفاهيم عديدة كالتفاعل الاجتماعي والدور والسلوك.

ومن أهم المؤسسات التي درسها جوفمان لتأكيد نظريته الاجتماعية هي المؤسسات الكليّة (مستشفى الأمراض العقلية والسجون)، وهي برأيه، بمثابة مكان خاص للعيش والعمل. وتحدث داخل هذه المؤسسات عمليات كثيرة تعيق مبدأ العلاقات الاجتماعية بسبب القهر والإذلال والتسلط والمرض الذي يتعرض له الأفراد من سلطة المؤسسات.

---

(1) جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص 302.

ويمكن إبراز أهم العوامل التي تخلق الموقف الاجتماعي داخل هذه المؤسسات وهي[1]:

1 ـ العيش تحت سلطة واحدة، والرفقة المباشرة بين الجميع، حيث يشعر الجميع داخل هذه المؤسسة من المشرفين والمرضى والمسجونين، بوجود سلطة واحدة تتحكم في القرار لصالح الهيئة المشرفة وليس لمصلحة النزيل (المريض العقلي أو السجين).

2 ـ وجود شعور واضح بوجود نوع من الخيبة النفسية لدى المرضى العقليين والسجناء بأنهم ضعفاء ومدانون لمخالفتهم القانون كمجرمين أو لأنهم مرضى عقليون. بينما يشعر أصحاب سلطة المستشفى أو السجن بالفوقيّة وصحة المواقف التي يتخذونها.

3 ـ سيطرة عوامل الدونيّة والذل والضعف وامتهان النفس، نفسيّة النزيل (المريض أو السجين)، وتعرضهم لعمليات اجتماعية ونفسيّة تفقده الثقة بالذات، مما يجعله غير لائق للعالم الخارجي.

4 ـ يتعرض السجين أو المريض إلى موت بطيء بسبب الإجراءات العسكرية التي تمارسها سلطة المؤسسة بحجة تأهيله اجتماعياً فلا يحصل إلاّ على حقوق ضعيفة لا تتناسب مع حقوقه المدنيّة. فهو يتعرض لأبشع عمليات القهر والإذلال، ويخضع لعلاقات إجبارية، وروابط إجبارية بالآخرين.

الدور والحرية

يعتقد جوفمان بأن الإنسان دائماً يبحث عن الحرية حتى في أصعب ظروف القهر الاجتماعي، ذلك لأن النفس المندفعة النشطة والخلاقة دائماً

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، مصدر سابق، ص 206.

تقاوم التسلط وتسعى لتوسيع حدود حريتها.

فالأفراد يراقبون ويطوعون تعابيرهم حتى يتفقوا مع توقعات ومسؤوليات دور معين يلعبونه. ولذلك ميز بين الأدوار النمطيّة والوجه المعياري للدور، ثم الأداء الحقيقي الشخصي في دور معين.

ولعل من المفاهيم الجديدة التي طرحها جوفمان في موضوع الدور والحرية هو مصطلح «التفاعل الاستراتيجي»، وهو عكس الاتصال والتفاعل التلقائي العفوي بين الأشخاص. حيث يعتمد التفاعل الاستراتيجي على اتصالات الوجه للوجه، وخاصة ذات العلاقة بالتعابير اللغوية مثل الترنيم وإيماءات الوجه. وهي تلميحات لها خصائص التعبير وتفتقر إلى الكلام.

والشيء الملفت للنظر أن جوفمان ينظر بريبة كبيرة إلى العلاقات بين الأفراد ويجعل منها أشبه بحرب يمارس فيها الأفراد أنواعاً من المصائد والحيل ضد بعضهم البعض.

خلاصة نظرية جوفمان

1 ـ تبادل المعلومات تشكل ركيزة أساسيّة في عملية التفاعل الاجتماعي التي تسير باتجاهين بين الفاعل والآخرين.

2 ـ السلوك الاجتماعي يتوقف على عناصر فردية قائمة على قيام الفرد بدور (مسرحي) مخادع أو متصنع بقصد تحقيق رضا الآخرين عنه، وكيفية التحكم بانطباعاتهم وفق ردود فعل الآخرين عن سلوكه.

3 ـ البناء الاجتماعي يقوم على فكرة التفاعل، وهو مؤقت ديناميكي.

4 ـ أداء أدوار الفرد في الحياة اليوميّة لا ينفصل عن سلوك الفرد ويرتبط مع سلوك الغير.

5 ـ خلاصة ونتائج

يمكن إيجاز الفصل بالنقاط الآتية:

أولاً: تعود نظرية التفاعل الرمزي، تاريخياً، إلى المذهب البراجماتي الذي يحاول أن يجعل من الخبرة الإنسانية الأساس لكل معرفة وقيمة. وهو ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا، وبين البيئة الجديدة.

ثانياً: تتلخص نظرية ميد (الذات والمجتمع) بوجود ثلاثة عناصر جوهرية: «الرموز» كحقائق اجتماعية وأداة للتفاهم والاتصال بين الناس وهي عبارة عن إشارة مميزة للدلالة على موضوع معين مادي أو معنوي. و«الذات» العامل الجوهري في عملية التفاعل الاجتماعي، وهي تنشأ داخل المجتمع وتكتسب وجودها من الخبرات الاجتماعية عند الفرد. وهناك «ظواهر المجتمع» التي تكون داخل وعي الأفراد وإدراكهم.

وهناك الكثير من الانتقادات لنظرية ميد نوجزها بالنقاط الآتية:

1 ـ غموض الرموز والإشارات في عملية الاتصال والتبادل، وعدم الوضوح والتفسير بين عملية اللغة والكلام ووظيفتهما في عملية التفاعل الاجتماعي.

2 ـ وجود العموميّة في التفسير والتحليل خاصة في مسألة العلاقات بين الفرد والمجتمع والنسق الشمولي، كما أن عملية تطور المجتمع تبدو عامة جداً وغير واضحة.

ثالثاً: تشير نظرية كولي (المرآة العاكسة للذات) إلى أن الذات في جوهرها اجتماعيّة، وهي تتأسس نتيجة تفاعل الفرد مع الآخرين وخاصة أعضاء الجماعات الأولية. ونتيجة هذا التفاعل يمكن للفرد أن يرى نفسه في الآخرين كمرآة لمعرفة نفسه. كما يرى أيضاً، بأن الجماعات الأولية (الأسرة وجماعات اللعب والجوار. . . الخ) هي التي تقوم بتشكيل الذات، وتكوين خبرات الفرد المبكّرة، وتدعيم المثاليات الاجتماعية العامة.

وأبرز ما وجه من نقد لنظرية كولي الاجتماعية هي:

1 ـ تعتبر نظريته حول الطبيعة الاجتماعية للذات مثالية لأنها وضعت من خلال حسابات تصورية منظمة. وهذا لا يمكن أن يحدث دائماً للفرد، ولا يستطيع أن يقوم به بشكل منسق كما صورها كولي.

2 ـ تنطوي فكرته على تحديد كيان المجتمع ونموه على شيء من الغموض، ذلك لأنه لم يعزل وحدة بعينها من المجتمع في التحليل الاجتماعي، سوى الجماعات الأولية.

3 ـ يعاب عليه أنه لم يحصر اهتمامه في نمو العملية التاريخية الشاملة الخاصة بتطور الكائن الفردي الاجتماعي أو الذات الاجتماعيّة. حيث لم تتحقق النزعة التطورية بالمعنى التقليدي للمصطلح في أعماله بهذا الخصوص.

رابعاً: تحاول نظرية جوفمان الاجتماعية أن تهتم بالفرد وموقفه من الآخرين وكيفيّة تقديم نفسه وأفعاله لهم من خلال التفاعل. فالمعلومات هي الركيزة الأساسية في عملية التفاعل الاجتماعي، بينما السلوك الاجتماعي قائم على قيام الفرد بدور «مسرحي» مخادع أو متصنع من أجل رضا الآخرين والتحكم بانطباعاتهم.

ويعتقد جوفمان أيضاً، بأن بعض المؤسسات الاجتماعية تعيق مبدأ العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بسبب نظام القهر والتسلط والإذلال الذي

تمارسه ضدهم، كما في نزلاء السجون ومستشفى الأمراض العقلية.

أما أبرز الانتقادات الموجهة لنظريته فهي:

1 ـ يعاب عليها بأنها لم تأخذ بنظر الاعتبار خبرات الآخرين الشخصية وأثرها على نوع ودرجة تفاعلهم مع الفرد، فقد تكون خبرات الآخرين أعمق وأنضج من خبرات الفرد.

2 ـ وجهت لجوفمان عدّة تساؤلات نقدية مشروعة أبرزها: إلى أيّ حد يصف إطار العمل المسرحي التفاعل الاجتماعي ويفسره؟ وإذا كان التفاعل ـ برأي جوفمان ـ هو الذي يتحكم في الانطباعات، فما الذي يمكننا أن نعرفه عن الذات الحقيقيّة للفرد إذا ما استخدم هذا الإطار؟

خامساً: على الرغم من مساهمات نظرية التفاعل الرمزي في إرساء النظرية الاجتماعية، وتقديم الإضافات الفكرية المنهجيّة لها. فإن هناك الكثير من الانتقادات التي تقع بعضها في باب الاجتهاد ومنها[1]:

1 ـ لم توضح لنا نظرية التفاعل الرمزي من أين يتكون البناء الاجتماعي، وما هي عناصره وأهميته للسلوك الاجتماعي أو المجتمع نفسه؟ لهذا كان التصور للبناء تصوراً غامضاً ومبهماً يحتاج لكثير من التحليل والتفسير المنطقي.

2 ـ إن مفاهيم هذه النظرية تشير إلى دراسة الظواهر الاجتماعية القريبة الأمد مثل «الذات والأنا والعقل والدور». ولم تدرس المفاهيم البعيدة المدى «كالنظام والنسق الاجتماعي والحضارة».

---

(1) تم الاعتماد في عرض هذا المبحث الصغير على عدّة مصادر: إرفنج زايتلن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق. ود. إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، مصدر سابق. نقلاً من د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص 195 ـ 199.

3 - من الصعوبة دراسة النفس البشرية من خلال التعاريف الإجرائية، لأن النفس متطورة ومتغيرة. كما أننا نجهل كيف استطاعت النظرية التفاعلية من دراسة النفس البشرية والدور الاجتماعي من خلال دراستها لنشاطات التفاعل اليومي.

نماذج أسئلة الفصل السادس

س1 : إشرح بالتفصيل الجذور التاريخيّة لاتجاه التفاعل الرمزي، مبيناً تطورها ومفاهيمها. ومحدداً بنقاط أهم موضوعاتها التي تشكل بناءها النظري.

س2 : أكتب مذكرات في الموضوعات الآتية:

1 ـ المجتمع والسلوك الاجتماعي عن هربرت ميد.

2 ـ المجتمع والعلاقات الاجتماعية عند كولي.

س3 : حلّل النظرية الاجتماعية عند هربرت ميد. موضحاً موضوع «الذات والمجتمع»، وكيفيّة تشكل الذات، والعوامل المؤثرة في النفس البشرية:

س4 : إشرح بالتفصيل نظرية جارلس هرتن كولي المرآة العاكسة للذات وعملياتها الاجتماعية والنفسية.

س5 : أكتب خلاصة لأفكار كولي الإجتماعية ثم انقدها.

س6 : وضح بالتفصيل الاتجاهات العامة لنظرية إيرفنك جوفمان، مبيناً رؤيته لموضوع «مسرح الحياة الاجتماعية»، وانقد نظريته.

س7 : كيف ينظر جوفمان لموضوع «الدور والحرية». ناقش هذه الفكرة بالتفصيل.

س8 : أكتب خلاصة لأفكار هربرت ميد الاجتماعية ثم انقدها.

س9 : أنقد بنقاط نظرية التفاعل الرمزي.